سوريا في زمن الصليبيين

[تتمة البحث]

لفؤاد زيادة

الصليبيون وجموعهم

كانت اوربا المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي رسمناها للشرق . كان الاقطاع سبيل الحياة السياسية ، الا حيث قامت المدن التجارية التي ابتاعت حريتها من النبلاء ، لقاء ضريبة تدفعها لهم . وقد فرض هذا على الاتباع قيوداً اجتماعية سياسية ثقيلة جداً ، كما فرضت عليهم الحياة الزراعية قيوداً اقتصادية . ولم يعرف الحرية الا اولئك التجار الذين كانوا يتجولون بين اوربا والشرق . وكانت الكنيسة قد سيطرت هناك على العقول ، فأغلقت دونها أبواب المعرفة الا ما رضيته ووافق عقائدها وتقاليدها ، فكانت آمال اتباعها في السماء ، وسبيل تحقيقها ارضاء الرئيس الروحي أو التبرك بأثر من آثار القديسين أو الحج الى البلاد التي قضى فيها المخلص أيامه على الأرض[1] . وهذه فكرة جديدة تستهوي الافئدة ، وتملك الالباب ، ذلك أن عودة المسيح أصبحت قريبة فليعمل كل جهده ليكون له ملكوت السماوات . فكان همُّ الكبير والصغير ، المجرم والبريء ، أن يفوز بهذه النعمة

وهذا الطاعون والقحط ، يهجمان على غرب اوربا في أواخر القرن الحادي عشر ، فيتركان الناس على شر ما يكونون[2] ، فقر مدقع ، وارض ليس من يعمل فيها ، ويأس من النجاح في بلادهم . فسعى بعضهم الى الارض المقدسة ليكفر عن ذنبه ، ودخل آخرون الدير ليصوموا ويصلّوا[3] . ومن هنا كانت بين الجماعات الأوروبية نزعة قوية نحو تبديل ما هم عليه ، وميل الى تحسين أمورهم[4] ، وكثيرون خرجوا من بلادهم ليعملوا في مكان آخر لندرة الاعمال عندهم[5]

والتجار الذين سحرتهم ثروة الشرق ، وراقتهم اسواقه ، رغبوا في أن يكون لهم منها حصة اكبر ، لتزداد مغانمهم ، ويقوى نفوذهم ، لاسيما وان التنافس بين تجار المدن الايطالية نفسها كان قويّاً ، والتزاحم كان شديداً[6]

---

(١) راجع « الرحلة والرحالون في القرون الوسطى » — المقتطف (٢) Lamb 39,43 (٣) Lamb 33 والرحلة والرحالون (٤) Prutz 15 (٥) جوانفيل ١٧ (المقدمة) (٦) الخشني ١٠٨—١٠٩

أو الناقة على الحياة الاجتماعية بما يتفق ورغبته. فهم تكال للسلمين جزافاً[١] — «هم عباد اصنام[٢] ..» «وهم يعبدون محمد كالٰه[٣]» وهم جبناء ضعفاء تعوزهم الشجاعة ... يعمدون في الحرب الى طريقة الهرب ... سهامهم مسمومة، وهي، لا الشجاعة، التي تنزل الموت بعدوهم[٤]» — ليزيدوا حماستهم. وتشويق المؤمن الى ملكوت السموات، والمجرم الى الغفران، والعبد الى الحرية[٥]. والجائع الى الشبع، والفقير الى الثروة، والامير الى الامارة، والفارس الى الاجر[٦]، والتاجر الى الربح[٧]، والشهواني الى النساء الشرقيات الجميلات — كل يخلع ثوبه ويرتدي ثوب التقي والصلاح، ويضع شارة الصليب، لانها حرب دينية

هذه الحملات الصليبية اذن حققت تلك الاماني التي كانت تخفق بها الصدور، واوجدت للقوى والرغبات الحبيسة منفذاً للانطلاق، ومجالاً للعمل، وسبيلاً للاعلان عن نفسها[٨]. ثم فقدت بعد سنين، صبغتها، وصار للفرنسيين والبنادقة اعمال اخرى[٩]. من دون ان يعنى الآخرون بالدين في فلسطين. وبعض الامراء أرادوا ان يتخلصوا من نقمة ملك فرنسا عليهم، فحملوا الصليب ذراً للرماد في العيون[١٠]

والحملة الصليبية الاولى. والفظائع التي ارتكبتها في طريقها[١١]. وفي احتلال القدس[١٢]. يحت مما يشرف. وقد تظهر لنا رغباتهم من خلال تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين انفسهم. فقد استولوا على اديرتهم. وطردوهم من الكنائس والبيوت. فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الاردن[١٣] وكان بطريركهم يقيم في القسطنطينية أو في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين[١٤]

وعلى هذا فان هذه الروبعة الاجتماعية التي هبت على اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كانت لها عوامل اقتصادية وسياسية ودينية[١٥]. وقد هزت شعوب اوربا من بروج الى صقلية. وحملت في مدى القرنين الى سوريا نماذج من جميع الاصناف والاجناس البشرية التي كان العالم الاوروبي يعج بها[١٦]. وعلى ما بينها من تفاوت في الجنس واللغة والفكر، فقد كانت كلها تجمعها وحدة الدين والحماسة والشارة[١٧]. فهم على حد تعبير شرف الدين ابن عنين[١٨]

قد اجتمعوا رأياً ودينا وهمة وعزماً وان كانوا قد اختلفوا سنا

---

(١) Prutz 88 (٢) الكلية ١٨ : ٢٠٨ — ٢٠٩ و Lamb 153 (٣) الكلية نفس المكان (في الكلية ١٨ : ٢٠٦ — ٢١٢ مقال في الموضوع) (٤) الكلية ١٨ : ٢١٠ والنوادر ١٢١ (٥) Prutz 16 وفي نفس الكتاب ٧٢ — ٨٨ و ١٠٨ — ١٠٩ (٦) جواتيل ٤٢٦١، ٤٢٦٢، ٤٢٦٤، ٤٢٦٥، ٤٢٦٢، ٣٠٢٦٢ (٧) المسني ١١٠ (٨) Prutz 15 وجواتيل ٣٣ — ٣٤ (المقدمة) و Kugler 65,426-7 (الاصل) ١٧٦ (٩) جواتيل ١٦ (المقدمة) (١٠) جواتيل ١٧ (المقدمة) (١١) ولمج Lamb 175 عن احتلال المرة (١٢) Kugler 61 (١٣) تاريخ الكنيسة ٧٠ (١٤) نفس المكان (١٥) حتي — كتاب المتطف الذهبي — ١٤٣ و Prutz 119 (١٦) La Monte 203 و Lamb 126 (وهذه رواية مؤرخ معاصر هو فلكر) (١٧) Kugler 11 و Lamb 126 (١٨) المقريزي (السلوك) ١ : ٢١١

تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا

كان في الجيوش الصليبية . ومع التجار الصليبيين [١] . الفرنسيون من مختلف المدن [٢] . واللومباردیون [٣] من مدن ايطاليا التجارية الشمالية . والمالطيون [٤] . والاسبان [٥] والاسكندنافيون [٦] . والانكليز . والهنغاريون [٧] . والبلغاريون [٨] . والجرمان من القبائل المتفرقة في أواسط اوروبا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون . وكانت فلاحهم الخاصة حصينة [٩] . وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين . القاتل . واللص . وقاطع الطريق . والمجرم [١٠] . والقرصان . والسكير . واللاعب . والراهب . والراهبة . والرجل . والمرأة . والطفل . والعاهرة . والمحكوم عليه بالاعدام [١١] . والملك . والأمير والفلاح . والتاجر . والنبيل . والغني . والفقير . وباختلاف هم اختلفت الغايات والاطماع [١٢] . من دينية خالصة . الى مادية بحتة . والأخيرة هي التي غلبت متسترة بالأولى [١٣] . وقد كان هناك من جاء يفتش عن اميرة شرقية غنية يتزوجها [١٤]

***

انهُ لمن الصعب تقدير عدد الاوربيين الذين هبطوا البلاد السورية في القرنين المذكورين ، فان هذا البحث لم يستوفه المؤرخون بعد ولكننا نسمع دائماً الارقام تعلو عشرات الالوف الى المئات في الحملة الواحدة . فالحملة الاولى كانت نحو نصف مليون [١٥] والثانية فاقتها [١٦] والثالثة بلغت ربع المليون [١٧] وفي حصار عكاء كان عدد الافرنج لا يقل عن خمسمائة من الآلاف [١٨] حتى ان القاضي ابن شداد ركب دابته بعد احدى المعارك العادية في تلك السنوات ، وخاض بين القتلى واجتهد ان يعدهم فلم يقدر [١٩] . وهناك غير المتحاربين التجار والحجاج الذين زاد عددهم كثيراً في هذه الاثناء ولذلك فلا يبعد ان يكون عدد الذين اشتركوا في هذه الحروب مليونين من الافرنج [٢٠]

---

(١) ان التجار وحركتهم جزء من الحملات الصليبية . راجع La Monte 227,8,30,33,34 (٢) Prutz 25 وقد كان عدد الآتين من بريتني كبيراً حتى انشىء لهم مستشفى خاص بهم في عكاء (١٢٥٤) . (٣) Prutz 112 ؛ الخطط ١ : ٢٨٤ و ٣٠٤ والحسني ١١٠ (٤) Prutz 112 (٥) راجع Prutz 112 و Lamb 43 و 277-9 (٦) مثل سيجور وجماعته . راجع EarlyTravels 60-62 و Kugler 10,11,104 (٧) وقد عثر في البلاد السورية على نقود هنغارية وغيرها . Prutz 113 (٨) ابن جبير ٢٩٣ (٩) منها قلعة القرين في ضواحي عكاء (١٠) بركهارد في Prutz 119 (١١) يعقوب تقري — في Prutz 119-120 ، راجع ايضاً Lamb والفتح ١٦٩ — ١٧١ (١٢) Kugler 11,21,31 و Prutz 337 و La Monte 228,230-1 (١٣) Prutz 120-1 (١٤) في Prutz 121 امثلة كثيرة لهذا النوع من المحاربين (١٥) Kugler 30 وميشو — في الخطط ١ : ٢٧٩ راجع ايضاً La Monte 136 و Lamb 276-7 (١٦) Kugler 137 (١٧) Kugler 23 راجع الهامش (١) (١٨) الخطط ٢ : ٢١ (١٩) النوادر ١١٣ (٢٠) الحسني — عن تحف الزهور — ٩٩ وتقدر محمد كرد علي (الخطط ٢ : ١٢٨) عدد من نقل من الفرنجة والغربيين بخمسة ملايين

والامراء جالت في نفوسهم خواطر متعددة عن أمارات خاصة ينشئونها ، في البلاد التي «تفيض لبناً وعسلاً» ، حيث لا ملوك يحكمونهم [١] . والفرسان كانت تعروهم هزة اذا هم ذكروا انهُ من الممكن أن يحققوا الاغراض التي أقسموا ان يسعوا وراءها ، يوم قلدوا وشاح الفروسية

والبابا [٢] كان يتطلع وهو شديد الشوق الى اليوم الذي يستطيع فيه أن يعيد الكنيسة البزنطية الشرقية والارمنية الى حظيرة الهدى ، وحصن الطاعة الروحية

هذه هي الهواجس التي كانت تجول في الخواطر ، لما ان جاءت رومة ، او ادعي ان قد جاءت رومة [٣] ، رسالة صاحب بزنطية ، يستنجد بحامي النصرانية الاكبر ، ان يوقف التقدم الحثيث ، تقدم الجيوش التركية ، في هجومها العنيف على دولته الكبيرة

وسنحت الفرصة ، وكان على العرش الروحي ، البابا الفعي [٤] ، اوربانوس الثاني ، الفرنسي الاصل . فنسل الى كلرمون الفرنسية ، في خريف ١٠٩٥ ، ووقف بين مئات من رجال الدين والامراء وآلاف من غيرهم [٥] ، وقال «ان الاتراك قد أسروا وقتلوا كثيرين (في الشرق) وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله [٦]» . وطلب من الحاضرين [٧] «ان يذكروا الالوف الذين لاقوا موتاً شنيعاً» وعدد الفظائع التي زعم ان الشرقيين ارتكبوها مع الحجاج المسيحيين ومع مسيحيي الشرق ، وفي الكنائس . وذكرهم بقول المسيح ان من ترك بيته وارضه وأهله من أجلي ، جوزي على ذلك بمائة ضعف ، ونال ملكوت السموات . ولما وثق أنهُ أثار الشجون ، وأسال العبرات ، استصرخهم : «فعلى عاتق أي غيركم يقع اذن واجب الانتقام ؟ من أعمال الظلم هذه ؟ واسترداد الاراضي المقدسة؟ انتم الذين حباكم الله بالاصالة والشجاعة الفائقة ؟ والقوة الجسدية والمقدرة على الانتصار على كل من يجرؤ على مقاومتكم ؟ لا ترهبوا الموت ، لأن فيه تاج الشهادة . فالطريق قصير ، والعناء قليل ، والجزاء وفير أبدي . احلوا سلاحكم وامضوا فانهُ خيرٌ لكم ان تقعوا في المعركة من ان تتألموا لما يصيب اخوانكم ، وما تتعرض له مقدساتكم . سيروا . . . فاني أرى أمامكم في الطليعة ، القائد الذي لا يغلب — المسيح»

وفعلت هذه الكلمات فعلها في نفوس الجماهير ، فصاحت «ارادة الله ، ارادة الله» وشجع كل من سمع الخطاب من لم يسمع ، وكذلك انضم الناس الى الجيوش التي بدأت في السنة التالية تهد على سوريا لتنقذ البلاد المقدسة من أيدي حكامها المسلمين . وروج كل طماع السعوة بين الفئات المتدينة

---

(١) Lamb 44 و Kugler424 (٢) Prutz 120 و Kugler 86و Lamb 53, 65-6,25,69,95 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و La Monte 295 والعلاقة بين البابا والفرق الدينية في La Monte 206 والتاجر الايطالي والبابا وهناك بحث واف في العوامل التي دفعت البابا الى اثارة الحروب في Lamb 277-9 (٣) Lamb 277-8 (٤) Lamb 41,43,44 (٥) حضر الاجتماع ١٤٠ من رؤساء الاساقفة و٢٢٥ مطراناً و ٤٠٠ رئيس دير — Kugler 18 (٦) الكنيسة ٢٠٧ :١٨ و Kugler 11 (٧) Lamb 48-9

الاختلاط في سوريا

يبدو لنا الآن ونحن ننظر النظر المشارف مدى احتكاك هذه الملايين من مختلف الاجناس البشرية، والعادات والاخلاق خلال قرنين ، والاثر العميق الذي تركه هذا الاختلاط في نفس الجماعات الغربية التي اتيح لها ان تعاشر اقواماً راقين ، مخالفين لهم في الدين والمدنية . وهذا الاحتكاك امر فرضه التجاور في المسكن ، والتبادل في المصلحة . فان الصليبيين بعد ان استوطنوا سوريا ، ورأوا ماعاد عليهم من الفائدة المادية ، كان امراؤهم وتجارهم يحبون ان ينتشر السلم ويستتب الأمن بينهم وبين جيرانهم المسلمين ، ليعيشوا في اطمئنان[١] وليضمنوا لتجارتهم سيراً امناً الى اسواق بغداد . وكان اكثر الساعين الى ذلك تجار ايطاليا في الموانىء الكبيرة .حتى انهُ لم يكن غريباً ان يكون بين المسلمين والصليبيين حروب ومعارك ، وفي نفس الوقت تروح القوافل بالمتاجر وتجيء[٢] وليس عليها الا ان تدفع الجعل[٣] . وقد يتفق ، كما روى ابن جبير ، ان يدخل سبي الافرنج مدينة ، وتخرج في نفس اليوم قافلة من تجار المسلمين الى بلاد الصليبيين[٤] .اضف الى هذا ان امراء الصليبيين قد جندوا كثيرين من اهل البلاد في جيوشهم[٥] .ثم ان جهل هؤلاء الامراء اصول الزراعة ، وقلة الزراع الافرنج ، حملهم على استخدام السكان الوطنيين . وكانوا بادىء الامر يشتدون معهم ، لكن بعد حين احسنوا اليهم[٦] واقطعوا اصحاب النفوذ منهم الارض[٧] بل ولّوا على بعض الضياع التي كان لايعمرها الا المسلمون ، رؤساء مسلمين من قبلهم ، حتى في امكنة قريبة من مراكزهم[٨] . وكثيراً ما قيل ان فارساً افرنجياً اخذ اقطاعاً من امير عربي ، لقاء مال دفعهُ اليهِ[٩] . وقد كانت بعض الاراضي الواقعة على الحد بين المسلمين والصليبيين تقتسم غلاتها مناصفة، مثل البطحاء بين بانياس وهونين[١٠] وعلى هذا فقد كان الافرنج والمسلمون يعيشون معيشة ترفيه ، حتى ان ابن جبير اضاف الى وصفها[١١] « نعوذ بالله من الفتنة» . ولعل اغرب ما روي عن الاتفاقات التي عقدت حينئذٍ ما رواه ابن جبير ، من انهُ كانت شجرة كبيرة بين بيت جن (الشامية) وبانياس ، تسمى شجرة الميزان ، وهي حد بين الامن والخوف فمن اخذ وراءها (شرقها) الى جهة بلاد المسلمين ، ومن اخذ امامها (غربها) فالى جهة بلاد الافرنج . ولهم في ذلك عهد يوفون بهِ[١٢]

وهكذا فقد ضعف النفور بين السكان انفسهم من الفريقين[١٣] حتى ان ابن جبير لاحظ

---

(١) Prutz 61,62 وحتى انه لما استولى ابن قلاون على عكاء كان فيها تجار مسيحيون اوربيون (٢) ابن جبير ٢٦٨ و Prutz 360 (٣) الحسني ١١٥ (٤) ابن جبير ٢٨٠ و ٢٨٢ وجواتيل (٢٤٦) يقص حكاية يوحنا الارمني الذي ارسله صليبيو عكاء الى دمشق ليبتاع معدات عسكرية مع ان صاحب دمشق والافرنج عكاء كانوا في حرب (٥) موزرو — الكلية ١٨ : ٢١١ و Lamb 270 ولامونت . (٦) الحسني ١٠٦ وموزرو — الكلية ١٨ : ٢١١ و La Monte ٢٠ (المقدمة) (٧) اسامة ٣ - ١٠ و ١٢٠ و La Monte 21 (المقدمة). (٨) ابن جبير ٢٨٤ واسامة ٨٢ (٩) اسامة ٩٧ «القرية كانت بيننا وبين فارس من الافرنج كفر طاب و Lamb 173 (١٠) ابن جبير ٢٨٢ — ٢٨٣ (١١) ابن جبير ٢٨٤ (١٢) ابن جبير ٢٨٤ (١٣) Prutz 61

ذلك في اهل صور فقال عنهم انهم [١] « ألين في الكفر طبائع ، واجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازل ، نخلائقهم اسمح ، ومنازلهم اوسع واربح ، واحوال المسلمين بها أهون واسكن » وقد شهد ابن القلانسي بصور عرساً صليبياً ، فوصفه ، ووصف ثوب العروس المزركش الفضفاض ، ومشيتها الفاتنة ، ونقلها الى بيت عريسها ، يتقدمها المسلمون وسائر النصارى من النظار ، وليس من ينكر ذلك [٢] . حتى الرهبان كانوا يضيفون المسلمين في الدير [٣] واهل لبنان المسيحيون يقدمون للمنقطعين لله من المسلمين القوت ، ويحسنون اليهم [٤]

ويحدثنا المؤرخون المعاصرون عن الثقة المتبادلة بين المسلمين وجيرانهم من الصليبيين ، بعد ان اقاموا في البلاد مدة ، وتبلدوا وعاشروا المسلمين [٥] وكثيراً ما كان صاحب الامر في جهة ، يمر به رسول عدوه فيكرمه [٦] او يطلب احدهم الامان لجماعة تجتاز بلاده فلا يبخل بذلك [٧] وتسل المعرفة بينهم حدود المودة ، كهذا الذي يحدثنا اسامة عنه ، فانه كان فارساً محتشماً وصل من بلادهم يحج ويعود . فأنس باسامة ولازمه وكان يدعوه « أخي » وبينهما المودة والمعاشرة [٨] . وهذا صلاح الدين ، يقدم عليه صاحبه بالناصرة ، فيحترمه ويكرمه ويثوا كله ، ويعرض عليه الاسلام ويذكر طرفاً من محاسنه ويحثه عليه [٩] كما ان تبادل الهدايا مع الرسل كان مألوفاً [١٠]

فسوريا اصبحت لهؤلاء الصليبيين بلاداً تفوق غيرها بالحرية حيث الملك والبطريرك والامراء والتجار والحجاج والعامة من الناس جربوا ان يتبلدوا مع جيرانهم من المسيحيين الشرقيين [١١] والمسلمين

والحق ان الاختلاط الاجتماعي [١٢] بدأ بين الشرقيين والغربيين بعد مرور زمن قصير جداً من نزولهم البلاد . فان بلدوين ملك القدس ارسل لحيته . وحيّى بالانحناءة الشرقية . واكل على بساط على الارض . وقدم امامه المبوقين على عادة سلاطين الشرق . وتنكر واتخذ الزي الشرقي . فلبس العمامة والجبة المرصعة بالجوهر . [١٣] وعلى هذا سار كثير من الامراء فيما بعد . حتى ان الامير هنري طلب الى صلاح الدين ان يبعث له بعمامة وفروة . لان الفرنج يحبون هذا الزي [١٤] ولم يقتصر هذا على الامراء . بل شمل الكل تقريباً . رجالاً ونساء [١٥] وحذا الفرنجة حذو الشرقيين في اعيادهم وحفلات لهوهم . فاستخدموا جوقات الطرب في ساعات السرور . وقلدوهم في بناء دورهم . فجعلوها فسيحة ذات غرف واسعة ودواوين مكشوفة [١٦] وقلدوا الشرقيين كذلك في مآكلهم . واتخذوا طباخات مصريات . وامتنع بعضهم عن اكل لحم الخنزير تقليداً للمسلمين [١٧]

---

(١) ابن جبير ٢٨٧ (٢) ابن جبير ٢٨٨ (٣) ابن بطوطة ١ : ٤٩ (٤) ابن جبير ٢٦٨ (٥) اسامة ١٣٤ و١٤٠ و ١٩٦ و Lamb 262 ينقل قول فكر المصر « ان الثقة المتبادلة جمت » (٦) اسامة ٨٢ و٨٧ (٧) اسامة ٣٤ (٨) اسامة ١٣٢و١٤٠ (٩) النوادر ٢٤ (١٠) القلانسي ٣٥٦ (١١) Lamb 262 (١٢) جوائيل ٢٦١ — ٢٦٣ (١٣) و(١٤) Prutz 62 (١٥) Early Travels واسامة ١١٦ (١٦) حتى كتاب المقتطف الذهبي ١٤٥ — ١٤٧ (١٧) اسامة ١٤٠

وقد كان كثيرات من المسيحيات في حريم الامراء والكبار من المسلمين . وكان اولادهن دعاة سلم . وعمّال صلح بين الفريقين[١] وكان صاحب جبيل (الصليبي) متزوجاً ابنة سلطان حلب[٢] وتزوج كثير من الصليبيين بنات البلاد المسيحيات اومن تنصر من المسلمات كما ان المسلمين تزوجوا مسيحيات ابقين على دينهن او اسلمن[٣]

واعجب الافرنج ببراعة السوريين في الرماية والمسابقة واللعب الصوالجة . واخذوا يرتاضون بها . ويتمجنون على منوالها[٤] وكثر اجتماع الفرسان من الفريقين للرياضة والصيد وعقدوا لهذا عهوداً خاصة[٥] وكانوا يقبلون هدايا بعضهم بعضاً كان نوعها حتى في ايام الحرب[٦] وشملت هذه العادة فرسان الفرق الدينية الصليبية والحشاشين الشرقيين[٧] كما ان الجند العادي كان اذا وقفت رحى الحرب انس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة . ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة[٨]

وكثيراً ما احتفظ السلاطين والملوك والامراء برهائن توثيقاً لحلف اومعاهدة . وهؤلاء الرهائن كانوا عادة من كبار القوم وابناء الامراء . ومعاشرتهم لاندادهم من المسلمين كانت ذات اثر طيب في تعريف الفريقين كل بالآخر[٩] حتى الاسرى كان امراء المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة . ويعطونهم قسطاً وافراً من الحرية . وعلى هذا المنوال كان حظ بعض المسلمين في اسرهم عند الصليبيين[١٠]

وتعلم كثيرون من القادمين اللغة العربية ليتمكنوا من التخاطب مع السكان في المتاجرة والمناسبات الاجتماعية[١١] كما تعلم بعض الشرقيين اللغة الفرنسية والايطالية[١٢] واتخذ كثير من الامراء كتاباً شرقيين يتكلمون العربية وغير العربية من اللغات الشرقية[١٣] كما انه كان من حق الاستاذ الاعظم ونائبه في الفرق الدينية ان يكون له كاتب عربي[١٤] وعمل العرب كتاباً وتراجمة للتجار واصحاب المعامل التي انتشرت في المدن السورية[١٥] ، وقلما فرق هؤلاء في المعاملة بين المسلم والمسيحي الشرقي[١٦] وقد رأى ابن جبير في عكاء كتّاب الديوان من النصارى يتكلمون العربية ويكتبون بها[١٧]

وقد ادرك الصليبيون من اول الامر تفوق الشرقيين عليهم في الطب ، فكانوا يستدعون اطباء المسلمين لمعالجتهم[١٨] والصليبيين العذر في استدعاء اطباء المسلمين اذا كان اطباؤهم من ذلك النوع الذي اورد ذكره اسامة بن منقذ في الاعتبار[١٩] فقد روى ان صاحب المنيطرة كتب الى عمه يطلب

---

(١) و(٢) Prutz 63 (٣) Prutz 141-3 والكلية ١٨ : ٢١٢ (٤) حتى في كتاب المتطف الذهبي ص ١٤٤
(٥) Prutz 68-9 والكلية ١٨ : ٢١٢ (٦) Prutz 89 (٧) جوانفيل ٢٤٥ و٢٤٨ و ٢٥٠
(٨) انوادر ٩٢ (٩) اسامة ١٠٥ والمقريزي «السلوك» ١ : ٢٠٨ وللفتح ١٩٣ (١٠) الكلية ١٨ : ٢١٢
(١١) جوانفيل ٢٤٦ والنوادر ٨٠ (١٢) Prutz (١٣) جوانفيل ٢٧٧ و Sykes 64 والخطط ٤ : ٣٩ (١٤) دائرة المعارف البريطانية مادة Templars (١٥) Prutz 145 (١٦) Prutz 146 والكلية ١٨ : ٢١١ (١٧) ابن جبير ٢٨٥ (١٨) Prutz 62 فلا عن يعقوب الصوري (١٩) اسامة ١٣٢–١٣٤

اشار طبيب يداوي مرضى من اصحابه . فارسل اليه « ثابتاً » فاقام عشرة ايام حتى عاد ، فقالوا له : « ما اسرع ما داويت المرضى » قال « احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها إشاف . فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة وربطت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شي يداويهم . وقال الفارس دايماً أحب اليك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . قال اعيش برجل واحدة . قال . احضروا لي فارساً قويا ونأساً قاطعاً . فحضر الفارس والفأس . وأنا حاضر . فحط رجله على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه . وأنا أراه . ضربة واحدة . ما انقطعت . ضربه ثانية فسال مخ الساق . ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فأخذ الموسى . وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح . فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم الي حاجة ؟ قالوا « لا » ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه . وروى اسامة عن أحد امراء الصليبيين[1] وقد رافقه من شكاء الى طبرية ، انهُ كان في بلد الامير فارس كبير القدر ، فمرض وأشرف على الموت ، فجاؤا الى قس كبير من قسوسهم ، واستصحبوه الى المريض . فلما رآه القس طلب شمعاً فليّنه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب أنفه ، فمات الفارس

وقد كان عند الافرنج أمس آخر آثار استغراب العرب ، وهو عماتهم ، فقد كانوا لا يزالون يحتكمون الى وسائل الامم الجرمانية التي استعملتها في القرن الخامس للميلاد وقبله . وقد ذكر لنا اسامة انه مرّ بنابلس ، وحدث ان أحد الفلاحين اتهم انه كبس ضيعة من ضياع المدينة فقال الفلاح « انصفني : أنا ابارز الذي قال عني اني دللت الحرامية على القرية » فجاء صاحب القرية المقطع بحداد قوي ، واعطاها شحنة البلد عصاً وترساً ، واخيراً تغلب الحداد الشاب ، وبرك على خصمه يداخل أصابعه في عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا في رقبته حبلاً وجروه وشنقوه ، اذ ثبتت لهم ادانته[2]

ولعلّ خير ما يمثل الاتصال بين الغربيين والشرقيين ما ذكره المقريزي عن الامبراطور فردريك من انهُ كان متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات ، وانهُ بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي — المعروف بتعاسيف — وغيره فكتب جوابها[3]

فالاستيطان في البلاد الشرقية ، وتقليد الشرقيين ، والتزاوج ، والثروة التي حصل عليها الغربيون أنستهم بلادهم الاصلية ، فلم يفكروا بالعودة اليها ، ولم يسمعوا حتى باسمها ، واثبتت لهم أنهُ من الممكن للمسيحيين أن يعيشوا مع المسلمين على وفاق تام ، فيكون لكل حظه من العمل والاتجار

(١) اسامة ١٣٧ (٢) اسامة ١٣٧ — ١٣٩ (٣) السلوك « المقريزي » ١ : ٢٣٢

والورع والربح [١] ، بل ويكون لكل مصلى: فالمسلم مسجده والمسيحي كنيسته ، وبهذا نستطيع ان نعلل ما رواه المعاصرون من تَرك الصليبيين المتأخرين للمساجد في المدن . فالهروي يقول [٢] « ان جميع ما على أبواب الصخرة من آيات القرآن العزيز واسامي الخلفاء (ر) لم تغيره الافرنج» وابن جبير قضى مدة اقامته بصور بمسجد بقي في أيدي المسلمين [٣] ويضيف «ولهم فيها مساجد اخرى» ويصف الهروي [٤] مساجد عكاء ، وابن جبير وابن بطوطة يوافقانه على ذكر المساجد . ومن هذا ما رواه المؤرخون [٥] من انهُ لما زار الامبراطور فردريك القدس نزل في دار القاضي ، وفي تلك الليلة أمر القاضي المؤذنين ان لا يؤذنوا ألبتة . فلما أصبح قال الملك للقاضي « لمَ لم يؤذن المؤذنون على المنائر ؟ » فقال القاضي «منعهم الملوك اعظاماً للملك واحتراماً له» فقال له الامبراطور « لخطأت فيما فعلت . انهُ كان اكبر غرضي في المبيت بيت المقدس ان اسمع أذان المسلمين وتسبيحهم بالليل»

وقد تغير رأي الصليبيين في الشرقيين والدين الاسلامي . فقد بلوا من شجاعتهم الكثير من اول الامر . فبعد ان قالوا عنهم انهم يفرون من الحرب ولا يجرؤن على التلاحم في المعارك [٦] رأوا « انهُ ليس لهم الحكمة والعلم الكافي على وصف شجاعة الاتراك [٧] واعترفوا « بمهارة الشرقيين الحربية وفروسيتهم وكرم اخلاقهم »[٨] و« انهم محبو الضيافة والفائقون في الادب واللطف »[٩] ومن الجميل ان نلاحظ ان الصليبيين كانوا في السنين الاول من القرن نفسه قد عللوا عظمة عماد الدين زنكي بان جعلوه ابن الكونتس ايدا (Ida) التي اشتركت في حملة ١١٠١ ، وفي زمن الحملة الثالثة اعتقدوا ان قليج ارسلان من نسل جرماني شريف . ولكن بعد ان انتشرت شهرة صلاح الدين ، ظهرت خرافة تعلل عظمة توماس بكت احد مشاهيرهم بجعله ابناً لام عربية [١٠] ومن تأثرهم بالحياة الشرقية اعتنق كثيرون منهم الاسلام [١١] ، حتى شعر البابا فريغوريوس العاشر بالخوف من ذلك ، وبضرورة وضع حد لهذا الامر ، فحرم مديد المعونة الى المرتد [١٢] وفي معاهدة عقدت سنة ١٢٨٣ أرغم الافرنج على التعهد بحماية حقوق المرتدين عن الدين المسيحي [١٣]

***

ويحق لنا ان نسأل الآن ، ما كانت آثار هذا الاختلاط ؟ ما الذي حمل هؤلاء الغربيون من بذور المدنية الشرقية الى بلادهم ؟

المؤرخون والباحثون مجمعون على ان هذه الحملات احدثت انقلاباً كبيراً في الحياة الاوربية ، في

---

(١) Prutz 72 . وهذا ما كانت تقاومه الكنيسة لانه يحول دون تحقيق غايتها (٢) الهروي « الخطوطة ١٩ (٣) ابن جبير ٢٨٨ (٤) الهروي « الخطوطة» ١٩ (٥) المقريزي «السلوك» ١ : ٢٣١ـ٢٣٢ وهناك تجد الروايات المختلفة للقصة اللطيفة (٦) الكاية ١٨ : ٢١٠ (٧) الكاية ١٨ : ٢١١ و Lamb 120 وهو ينقل عن مؤلف معاصر هو كاتب الكتاب المعروف باسم Gesta (٨) الكاية ١٨ : ٢١١ وهنا ينقل موزو عن جيبرت (٩) الكاية ١٨ : ٢١٩ نقلا عن بركارد «١٢٨٣م» (١٠) موزو الكاية ١٨ : ٢١٦ (١١) موزو الكاية ١٨ : ٢١٩ عن رئيس فرقة الدومنيكان الاعمى (١٢) موزو الكاية ١٨ : ٢١٩ . صدر هذا الامر سنة ١٢٧٤ (١٣) نفس المكان

المجتمع ، والثقافة ، والحكومة [١] والقانون [٢] والبابوية ، والكنيسة ، والتجارة [٣] ولكن الخلاف بينهم في مدى هذا الانقلاب كأثر لهذه الحملات . وسبب ذلك ان المدنية العربية انتقلت الى اوروبا عن طريق الأندلس وصقلية [٤] والشرق . والمتفق عليه أن العلم كان سبيله الطريقين الاولين ، والناحية الاجتماعية والاقتصادية تأثرت بالطريق الثالث [٥] فالحروب الصليبية فتحت امام اوروبا أبواباً جديدة للعمل والتفكير ، واوجدت لهم اغراضاً جديدة في الحياة فاتجهوا في نهضتهم اتجاهاً نافعاً حرّاً ، بعد أن كانوا مقيدين بالنظام الاقطاعي [٦] والنواحي التي نقل الصليبيون اثرها الى اوربا متعددة ، لا نستطيع ان نحيط بها في هذه الالمامة الوجيزة ، وعلى ذلك فنحن نجتزىء بأمثلة تبين القصد ، دون ان تبلغ بنا الحد [٧] . فقد اخذوا من الشرق الورق [٨] ، والسكر [٩] ، ودود القز وتربيته [١٠] ، والفواكه كالليمون والمشمش [١١] ، وصنع الاقمشة كالموصلين (الموصلي) [١٢] والدمقس (الدمشقي) والاقطان [١٣] والسجاد [١٤] والاصباغ واتقاء الالوان [١٥] والجبة وصنع المرايا [١٦] وطواحين الهواء [١٧] واستعمال الزنوك والشمار الخاص [١٨] والمسابح [١٩] واستخدام الحمام الزاجل [٢٠] وقلدوهم في البناء الحربي والديني [٢١] والتطعيم بالصدف والتنزيل بالفضة والعاج [٢٢]

وكانت طبيعة الحروب التي شنوها تقضي عليهم بتخليد ذكرى ابطالهم بقصص شعرية ثم اخذوا القصص الشرقية لاشعارهم [٢٣] مثل كتاب كليلة ودمنة [٢٤] ولما عرفوا قصص التسامح الاسلامي كما ظهر في اعمال صلاح الدين وخلفائه صاغوها شعراً وقصصاً واصبحت غرام الشعراء في اواسط اوربا بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر [٢٥] وهكذا فقد تأثرت الحياة الادبية والانتاج الادبي وكان تأثره عميقاً [٢٦] كما انهم افادوا معرفة جغرافية من الرحلة ومن درس الكتب العربية [٢٧] وعلوماً جديدة [٢٨] كالصيدلة والجبر والطب فان مدرسة مونبلييه الطبية أثر من آثار احتكاك الصليبيين بالشرقيين [٢٩] كما انهم نقلوا عن الشرقيين مستشفياتهم [٣٠]

عكا (فلسطين)

---

(١) Pruts 335,402 وفي الكتابين يعطي امثلة لكلمات ادارية دخلت اوربا عن طريق الحروب الصليبية (٢) La Monte 20-24 « المقدمة » ، حتى « كتاب المقتطف الذهبي » ٤٢ (٣) يمكن مراجعة الامكن التي يتلخص فيها آراء المؤرخين في المسئلة . Legacy of Islam ٦٨–٧٢ و Sykes 64 وجوزي ١٢١ و Travel & Travellers و Kugler 431-2 و Pruts ٥٥ و ١٩٤ و ٤٠٣

(٤) و (٥) Legacy of Islam 63-1 و Legacy of Israel 215-237 و Sykes 65 (٦) « نقلا عن جنكل » و Pruts 55,72,397,479,493 وحتى « الكتاب الذهبي » ١٤١ و١٤٣ (٧) راجع التفصيل في Pruts والكلية المجلد التاسع (٨) انشطط ١٢٩:٢ (٩) حتى Lamb (١٠) Pruts 325 (١١) Pruts 408 (١٢) و (١٣) حتى الكتاب (١٤) Leg. of Islam 63 و Pruts 433 (١٥) Legacy 61 و Pruts 410 (١٦) حتى « الكتاب الذهبي » (١٧) و Pruts 415 (١٨) Legacy 60 (١٩) (٢٠) للزائر ١٢٨ (٢١) Pruts 194,423 ورأي بلوكر في Legacy 58,62,63 وآراء اخرى في Legacy ايضاً ص ١٦٨ و ١٧٦ (٢٢) Pruts 432 (٢٣) Pruts 444,450 (٢٤) Pruts 450 و Legacy (٢٥) Pruts 441 (٢٦) Legacy 64 و Leg. 64 (٢٧) Pruts 441,451 (٢٨) Legacy 66,471 (٢٩) حتى « الكتاب الذهبي » ١٤٤-١٤٨ و Legacy 349-50,473 (٣٠) Legacy 57 و Legacy 349-50